طُرفة ادب من آداب العرب (١)

أيها الاخوان !

اذا قرأتم مقامات الحريري سمعتموه يقول في فاتحة كل مقامة « حكى الحارث ابن همام » راوياً أخباره عن « ابي زيد السروجي » . واذا قرأتم مقامات « بديع الزمان الهمذاني » ألفيتموه يقول « حدثنا عيسى بن هشام » مخبراً عن « ابي الفتح الاسكندري » وها أنا ذا اليوم أسمعكم مقامة لم يروِها الحارث بن همام . ولم يحدث بها عيسى بن هشام . وانما حدّث بها « ابو المطهّر الازدي » — عن « ابي القاسم البغدادي » .

فموضوع محاضرتي هذه مقامة من مقامات الادب . ابتدعها أحد كتّاب العرب . وافرغها في اسلوب عجب . وقد أعثرنا عليها الدهر المكنّى ابا العجب .

* * *

المقامة في اللغة معناها المجلس يقوم فيه الناس . ثم أطلقت مجازاً على الخطبة او الموعظة التي تلقى في المجلس . وبعد ان ألّف (البديع) و(الحريري) مقاماتهما اصبح للمقامة معنى خاص مراعى فيه الوضع والاختراع . فمن ثمّ يصح ان يُقابل « فنّ المقامات » في آدابنا العربية بـ « فنّ الروايات » في الآداب الافرنجية : من حيث أن كلاً منهما يُفرغ في قالب قصة ذات وقائع خيالية . واشخاص او أبطال خياليين . لكنّ « فن المقامات » عندنا ذوى واضمحل . اما فنّ الروايات عند الافرنج فقد أخصب ونما . واصبح شجرة باسقة : اصلها ثابت وفرعها في السماء .

والذي دعا البديع والحريري الى انشاء مقاماتهما . وافراغها في هذا القالب المفكّه

---

(١) هي المحاضرة التي القاها الاستاذ (المغربي) في ردحة المجمع في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٢١ .

المللي هو ملل أهل عصرهما من حالة الأدب القديمة . ومن طريقة المؤلفين والمنشئين في إيراد الحكم . وسرد الوقائع . ورواية الاخبار المختلفة .

واذا تأملنا في كل تجدد او نهضة تحدث في الكون سواء أكانت دينية او سياسية او اجتماعية او ادبية نرى معظم السبب المؤثر في حدوثها هو ملل الناس . فيحملهم هذا الملل على تطلب شيء جديد يناسب حالتهم الاجتماعية والفكرية التي وصلوا أو ارتقوا اليها : واذذاك يظهر التابغون والمصلحون والمجددون وزعماء النهضات .

خذوا مثلاً النهضات المتوالية في آدابنا العربية : فان العرب قبل الاسلام بنحو نصف قرن مأوا سماع أساليب فصحائهم الكلامية الأولى التي ربما كانت موروثة لهم من عهد حمورابي فنهض (قس بن ساعدة) و (امرء القيس) و (الأعشى) الذي كانوا يسمونه صناجة العرب فثقفوا الكلام وذهبوا فيه مذاهب أطربت العرب . واستهوت أفئدتهم .

ثم بعد نحو مئة سنة عاد الناس فملوا طريقة أصحاب المعلقات واجموها . ومما يروى في ذلك قول بعض العرب يعير بني تغلب :

(ألهى بني تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم)
(يروونها أبداً من كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مسئوم)

فكان من أثر هذا الملل أن نهض في دولة الامويين (عبد الحميد الكاتب) و (جرير) و (الفرزدق) فأحدثوا طريقة غضة كانت أشد التحاماً بحالة العرب وأذواقهم وهم في طورهم الاجتماعي الاسلامي الجديد .

ثم كر على ذلك قرابة مئة سنة وكانت قامت دولة بني العباس بخلفائها . ومجالس غنائها وندمائها . وقد ملّ الناس طريقة (جرير) و(الفرزدق) ومناقضاتهما . ويروى من آثار هذا الملل أن الشاعر كان إذا وقف بين يدي جعفر البرمكي للانشاد قال له : « قل ولا تطل فاني أملّ الأطالة » . وكان المأمون لا يحب أن يسمع سوى البيتين أو الثلاثة في مدحه وشيء من التشبيب والوصف .

فنهض (عبد الله بن المقفع) و (ابو نواس) و (بشار بن برد) الذي سماه بعضهم « ابا التجدد » فأسمعوا الناس عجبا . وأوسعوهم طربا .

ثم بعد مئة سنة ملّ الناس وضجروا من تكرير المعاد فنهض (ابو تمام) و (البحتري) و (الجاحظ) الذي يدعى (مالك الانشاء) . ويكفيني ان اذكر اسماء هؤلاء الثلاثة لتعلموا أيها السادة مبلغ تأثيرهم في تجديد الآداب العربية .

وقد أصبح الناس بتأثير حضارة هذا الزمن يميلون الى الغلو في النقد . والتفنن في الوصف . وذكر أخبار الناس . وما يقع للخلفاء والامراء في مجالس لهوهم . وكل مستملح من الحديث . ومفكه من الشعر . حتى قال الجاحظ : إن الناس في عهده ما كانوا يأنفون من إنشاد أغاني المغنين وأهازيج اللصوص وأشعار اليهود .

ثم انتقل الناس من القرن الثالث الى القرن الرابع الذي نضجت فيه الحضارة العربية أتم نضج . وبلغ الناس من الترف حداً تطلبوا معه أقصى ضروب المفكهات والمسليات . بعد أن كانوا ملأوا ترديد اقوال أدبائهم السابقين . وأحبوا ان يسمعوا غيرها الى حد ان كان يلذ لهم سماع أشعار السقائين الذين يحملون القرب . والملاحين على جسر بغداد . والمسحرين في رمضان . وأخبار سياحات البر والبحر . التي كثرت في ذلك الزمن . وسماع عجائب الهند . وجزائر واق الواق . وما وراء جبل قاف .

وكان حاملا لواء هذا التجدد أو النهضة التي انتظرها الناس (المتنبي) و (بديع الزمان الهمذاني) فكان أسلوبهما في الشعر والنثر ونفثاتهما فيهما عهداً جديداً في الأدب العربي . والشعر العربي . والتأليف العربي .

وامتدت هذه النهضة الى القرن الخامس الذي مات في أواسطه (أبو العلاء المعري) وبها ختمت نهضات الادب الخمس . ثم كرت بعدها ثمانية قرون . أخذت تضعف فيها حياتنا الاجتماعية بالتدريج . وفي آخر الامر لم نعد نشعر بملل بل ولا ألم . حتى كانت هذه العصور المتأخرة فأخذ يدب فينا دبيب الحياة . وعاد الينا الشعور بالملل من أدبنا القديم . ونهض شبابنا يتلمسون أدباً عربياً جديداً . يناسب مدنية القرن العشرين . ويلتحم مع آداب الامم الراقية التي تعيش فيه .

* * *

وفي النهضة الادبية العربية الخامسة التي قلنا إنها هي الأخيرة عمد الأدباء والكتاب الى وضع تآليف تحدث في النفوس تسلية ونشاطاً . موافاة لرغبة الناس

وسدّ احتياجاتهم كما ذكرنا. كذلك فعل البديع الهمذاني في مقاماته المشهورة. والاصفهاني في كتابه الاغاني. وأبو العلاء المعري في رسالته «الغفران».

لكن بعض المؤلفين والشعراء في هذا الدور تجاوزوا حدود الأدب الى المجون والهزل ويسمونه (إحماضا). وكانوا يعتذرون عنه أحيانا كما اعتذر الحريري في مقاماته عن بيتي كفاف الشتاء مذ قال «وماقصدت بالإحماض فيه. الا تنشيط قارئيه. وتكثير سواد طالبيه».

والمجون في أدبيات الامم أثر من آثار حضارتها وانغماسها في الترف. فليست الامة العربية بدعاً من سائر الامم: فإنها كلها — قديمها وحديثها — لها في آدابها من ضروب السخف والمجون واختراع وسائل للشهوات ما كان ليخطر ببال العرب.

ومن لطيف المصادفات أنني بعد أن وصلت في كتابة المحاضرة الى هنا اطلعت على مقالة في مجلة (Lse Annales) الفرنسوية يشكو فيها كاتبها من كتب المجون والخلاعة التي طغا طوفانها على الباريزيين. ولفت الكاتب أنظار الحكومة الى ملافاة هذا الشر. فقلت في نفسي ها إن (باريز) التي هي عروس الحضارة الاوربية اليوم قامت تشكو مما كانت تشكو منه اختها بغداد عروس الحضارة العربية أمس. ولشدّ ما كان التاريخ يعيد نفسه.

* * *

في هذا الدور الاخير من حضارة بغداد كُتبت مقامة (ابي المطهّر الازدي) التي جعلناها موضوع محاضرتنا هذه. وهي من الكتب التي تحجّن فيها كاتبها وتخالع. وأودعها من القول ما لا يحسن ذكره. لكنه والحق يقال كتبها باسلوب لا نظير له في كل ما كُتب واطّلعنا عليه من نوعه. حتى أعجب به المستشرقون ايما اعجاب. وليس اعجابهم به من حيث بلاغة أسلوبه. وتجويد سبك عبارته فقط. بل من حيث تفنّنه في وصف شؤون كثيرة من حضارة العرب. وطرق معايشهم في القرن الثالث الى أواسط الخامس.

وهذا ما نحبّ ان نُصغي اليه نحن من هذا الكتاب العجيب. ونعرض عما فيه من المجون الذي لا يحسن ولا يطيب.

وفي الكتاب كلمات وأساليب لا يمكن ان نوفّيها حقها من البحث الآن. فنجتزئ بالاشارة اليها:

من ذلك كلمات استعملها المؤلف منذ ألف سنة ونحن نظن أنها أحدث عهداً: نحو كلمة (تفضّل) في الدعوة الى الطعام و (بقّالي) لبائع الجبن والزيتون ونحوهما و (شوربا) لنوع من الطعام أظنه غير الحساء المعروف اليوم و (ألحان شجّية) أي مطربة و (له فرد كمّ) اي كمّ واحد و (كأس خمر بدوخ) أي يورث الدوار و (ماء الليمو وحمّاض الليمو) يعني الليمون ولما ذا حذف النون يا ترى؟ ويظهر ان الليمون كان معروفاً في ذلك العهد كالاترجّ والنارنج. و(بنّ) لكنهم كانوا يريدون به ضرباً من الكوامخ لا بُنّ الاسود المعروف ثم استعاروا كلمة (بنّ) لهذا الذي نعرفه كما استعاروا له كلمة القهوة وهو من اسماء الخمرة. و كلمة (أفّيه) للدلالة على التقزّز من الرائحة الخبيثة و (أشه) للدلالة على صوت العطاس.

ومن أغرب كلماته كلمة (شير) وانّثها فقال (شيرة) والشير نسمعها في لبنان ويعنون بها الصخرة المشرفة من جبل. هذه الكلمة لم يذكرها علماء اللغة فهي عامية اي موأدة. ولعلها سريانية عرفها العلماء في زمن العباسيين كما عرفناها بعد الف سنة مذ سمعناها من اللبنانيين. وربما كانت من جملة الكلمات السريانية الباقية في كلامهم وقد فسّرها في (الفرائد الدرية) بقوله: (الشير — Roc près de tomper).

ومن الكلمات الفصيحة التي كانوا يستعملونها في القرن الرابع وماتت بعد ذلك — كلمة (نفّاط) للسراج الذي يُستضاء به بواسطة زيت النفط اي زيت البترول غير المصفّى. فتصلح لان نسمّي بها مصابيح البترول اليوم. و كلمة (جُذور) جمع جذر وهي أجور المغنيات و كلمة (مفردات) في وصف الاشياء إذا كانت لا نظير لها فيقولون مثلاً (مفردات الاخبار) اي عيونها ونوادرها. و كلمة (متخارف) و(مُدبِر) يصفون بهما من كان مشئوماً سيء الحظ غير موفّق في أمور حياته. ويجمعون (مدبر) على (مدابير).

ومن غريب ما رأيته فيه من الكلمات جمعه (التي) بالتين قياساً على الدين

وابن مالك يقول : (باألات واللاتي التي قد جمعا) وأغرب منه استعماله (تا) بمعنى (حتى) فقال من بيت شعر :

(لم يزل يفعل كذا تا تهورت الخ)

اي حتى تهوّرت . و (تا) اداة تركية كما لايخفى . ولعل وزن الشعر هو الذي اضطره الى استعمالها ؟

* * *

ولنضرب صفحا عن تحليل الكتاب لغوياً ولنعمد الى الكلام على مضامينه اجتماعياً :

قلنا ان الكتاب مقامة اي رواية عربية . وأن بطلها اسمه (ابو القاسم البغدادي) وهو خيالي كأبي زيد السروجي وعيسى بن هشام بطلي مقامات البديع والحريري .

اما (ابو المطهر الازدي) الذي كتب هذه المقامة فهو — وان لم نظفر بترجمته فيما بين أيدينا من كتب التراجم — أديب من أدباء القرن الرابع . وربما امتدّ عمره الى أواسط القرن الخامس : بيان ذلك ان أبا المطهر المذكور من اصحاب (ابي عبدالله ابن الحجاج) الشاعر المشهور يُفهم ذلك من مقدمة الكتاب التي كتبها ابو المطهر نفسه . وابن الحجاج المذكور مات سنة (٣٩١) فيكون ابو المطهر ولد في أواخر القرن الرابع . ثم ان ابا المطهر ذكر في كتابه بين الأدباء الذين روى شيئاً عنهم (ابن غيلان البزاز) . وقال المستشرق ناشر كتاب ابي القاسم في المقدمة التي وضعها له — ان (ابن غيلان) مات سنة (٤٤٠) فهذا يدل على ان ابا المطهر عاش الى اواسط القرن الخامس . ولم يمكننا ان نعرف عن الزمن الذي وُلد فيه ابو المطهر ومات فيه اكثر مما ذكرنا .

وابو المطهر عاش في زمن البديع الهمذاني صاحب المقامات الذي مات سنة (٣٩٨) فيكون قد عرفه وعرف مقاماته . كما عرف ابا عبد الله ابن الحجاج وعاشره وسمع مجاناته . و (البديع) هو واضع فن المقامات كما شهد له بذلك الحريري اذ قال : (انه جرى في بعض أندية الادب ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلاّمة همذان) ويعني بقوله ابتدعها اخترعها وسبق غيره الى تصنيفها . وكما أن

البديع كان في ذلك الزمن (نابغة المقامات) كان عبد الله بن الحجاج (نابغة الخلاعات أو المجانات) . وقد عاشرها (ابو المطهر) كليهما . فلا جرم ان يكون في مقامته التي سمّاها (حكاية ابي قاسم البغدادي) قد جمع بين ما استفاده من النابغتين : التفنّن في سبك وقايع المقامة وتأليف اجزائها وهو أمر استفاده من البديع — والتفنن في السخف والمجون والخلاعة وهو ما استفاده من ابن الحجاج . فجاءت مقامته في البلاغة آية . وفي المجون نهاية .

ومما يُستغرب ان (ابا المطهر الازدي) لم يسمّ مقامته (مقامة) بل سماها حكاية مع انه استعمل كلمة (المقامة) في مقدّمتها التي كتبها لها فقال : (أشعار لنفسي دوّنتها . ورسائل سيّرتها . ومقامات حضّرتها) .

و يُستغرب أيضاً أن احداً من المؤلفين لاسيما كتّاب الفهارس والتراجم وشرّاح المقامات لم يذكر (حكاية ابي القاسم) التي ابتدعها ابو المطهّر مع أنها أعجب أسلوباً . واغزر شؤبوباً . من كل ما كتبه (المقاماتيّون) . وليس ذلك في غالب الظن إلا لما حوته من السّخف والمجون . فلم تتداولها أيدي النسّاخ ولم يُكتب منها سوى النسخة التي ربما كانت نسخة المؤلف نفسه فعلقت بها أيدي المستشرقين فرأوا فيها من وصف الحضارة الاسلامية في القرن الرابع والخامس ما حملهم على طبعها ونشرها .

(وكنا كتبنا الى العلامة احمد تيمور باشا نسأله رأيه في حكاية (ابي القاسم) فجاءنا منه الجواب قُبيل إلقاء المحاضرة في (ردهة المجمع) فتلونا ما كتبه على الجمهور وهذا نص ما قاله :)

(حكاية أبي القاسم البغدادي) تحتوي على أحاديث مضحكة وضعها مؤلفها على رجل يقال له ابو القاسم البغدادي وقد جاء في (ص ٣) ان اسمه أحمد بن علي التميمي لكن في (ص ١٤٥) انه علي بن محمد التميمي وفي (ص ٨٧) انه كان موجوداً في سنة ٣٠٦ والظاهر انه شخص وهمي جُعل وسيلة لوصف الحالة الاجتماعية ببغداد في ذلك العهد . وقد ضمّن المؤلف هذه الاحاديث اشياء من وصف الخيل والبغال والحمير والأطعمة وأنواع الفاكهة والرياحين والأعطار وأسماء السفن وذكر ألفاظاً

من لغة الملاّحين والعيّارين وغير ذلك . وذكر من كان ببغداد من القينات حوالي السنة المتقدم ذكرها باسمائهن وامماء من كان يعاشرهن وكثيراً ما يستشهد بابيات لابن حجاج : بعضها نسبها اليه وبعضها أغفل نسبتها . أما زمن المؤلف فلم نقف عليه غير اننا رأيناه ينقل في (ص ٨٠) أبياتاً لابن نباتة السعدي (المتوفى سنة ٤٠٥) فهو اما ان يكون عصريّه او بعده بقليل لان ما أتى به من الوصف في القصة يدل على انه لم يكن بعيداً عن ذلك العصر اهـ .

* * *

وموضوع مقامة (ابي المطهر) أن رجلاً يدعى (أبا القاسم البغدادي) كان في اصبهان فزار مجلساً لبعض كبرائها وكان في المجلس طائفة من أهل الفضل والادب فأخذوا يداعبونه . ويستنبئون دفائنه وهو يطرفهم بكل مستملح عجيب من نكته ونوادره . لا سيما تفضيل (بغداد) على بلدهم (أصفهان) وانها كانت أرفع شأناً . وأنضر عمرانا . واكثر استجماعاً لمرافق الحياة . و لبهجة العيش .

وكان ابو القاسم هذا أديباً عجيباً في بلاغته . وقوّة عارضته . غزير المادة في اللغة والادب والشعر وصناعة الانشاء والتفنن في صوغ الكلام وحوكه . ولكنه ويا للاسف كان ماجناً خليعاً مفرطاً في السخف . فلم يكن يتحاشى ذكر شيء منه في ذلك المجلس . وكان يدور الكلام بينه وبين القوم بشكل المحاورة والسؤال والجواب . ولقد طال ذلك الحديث بينهم وامتدّ النَّفَس فيه فكان كتاباً استغرق نحو مئة وخمسين صفحة متوسطة القطع .

* * *

اراكم أيها السادة قد ظمئتم الى سماع شيء من تلك المقامة . فدونكم منها مايسعه الوقت . ويليق بمجلسكم الكريم .

نذهب اولاً الى أصفهان وندخل مجلس ذلك العظيم الاصبهاني . لكننا نقعد في معزل عن الجماعة كي لا تقع علينا عينُ ذلك الماجن البغدادي فيرشقنا بحَصَاته . ويصيبنا شيء من أذاته التي كانت تصيب الحاضرين . ولم يسلم منها ربُّ الدار المسكين .

يجري ذكر أصفهان . فيذمّها (ابو القاسم البغدادي) فيقول له : الآخرون (يا ابا القاسم ! قد أسرفت . بعض هذا ! !) فيقول لهم :

أحاكمكم الى شاهد منصف : الى السمع . فأتكلم أولاً في الأسماء . إلى أن نصير إلى حقائق المعاني . فنتكلم فيها .

ثم يشرع يذكر لهم أسماء أماكن في بغداد . مثل (الرّصافة) (درب الريحان) (سوق العروس) الخ . ثم يقارنها باسماء اماكن في أصفهان : مثل (كورسان) أي المقابر (موشكاباذ) أي موضع الفار . (كوي كداي) درب الصّمّ . (كوي كوران) درب العُمي الخ :

ثم يهيج شوقه الى بغداد فيقول : هل أرى والله دجلة مشحونةً بالمراكب والزوارق . محفوفةً بالقصور والجوامق . يرتفع ما بينها أصوات الاغاني . وخفقان الرايات والسواني . واصوات الملاّحين . وزعقات المؤذنين . إن رأيت ترَ والله جمالاً وكمالا . وتسمع من ألحانها الشجيّة سحراً حلالا :

(لعمري لقد فارقتهم غير طائع ولا طيّباً نفساً بذاك ولا مُقرِ)
(وقائلةٍ ماذا تأى بك عنهم ؟ فقلت لها : لاعلم لي . فاسألي القدَرَ)

ثم يصف خيل بغداد فيقول وفيه المبالغة :

(مشترف الهادي كأنّ أذنَهُ تُصغي الى سِرّ حديث السُّما)
(فلم يكن يُسْرَج الا إذا وضعتَ في حاركه سُلّما)

ثم يصف النرس من خيل أصفهان فيقول : قد نَفَخ التبن بطنه : فهو كالغرارة . تسبقه عند الركض الحمارة . و يُفزعه صوت الفارة . وإما مهزول كالألف عجَفاً . او كالشّنّ البالي دَنَفاً . يعثر بالبعرة . وتقيّده الشعرة . قد أكل الجرب جلدته . وحصّ ذنبه وناصيته .

(عظامه قد ظهرت كأنها كأنها من حطب يابس)

ووصف الحمار من حميرهم فقال : أسود مثل الدِّقْس . كالقِرْبة البالية او زِقّ الدبس . إن وقفه راكبه على جماعةٍ أدلى . وان تركه أدبر وتولّى . وإن امسكه

أتعب يديه . وان حرّكه خلع رجليه . من مَعْرَز فخذيه . وان غفل عنه قام .
وان سأم على مستقبل جثا تحته ونام .

ثم قارن بين الدور والاثاث والحضر والثياب والطيب في البلدين . فقال عن أصبهان : وفيانكم بالابراد وعمائم القطن الكحلية . تُعلّق في أعدابها خيوط خضر وحمر . واهل السوق : لو عُصر قميص أحدهم يخرج منه جرّة دهن .

ووصف الخوان وصحافه فقال لأهل اصفهان :

ولا أرى بين يدي أحدكم خواناً قوائمه من خلنج[1] خراساني . بلا وصل ولا كسر . كأنه طبق منشور . او قطعة بلّور . او ثوب وشي . يشتغل الانسان بالنظر اليه . عن الاكل عليه . فوقه رُغفان مخبوزة من دقيق (فائق الهويدي) و (الطنسيري) ملحن (العروب) أبيض فيه صفرة . عجينه مثل الكعك : يمتدّ مثل الكَنْدُر[2] و يلتزق بالاصابع . يشرب الأوك منه دجلة . خبزه يصرّ تحت الاضراس . و يتعلّك حتى يوجع الفك عند مضغه . النظر اليه يُشبع . واللقمة منه تبلغ القلب — وسكاريج[3] : فيها الجبن الديناوري الخريف الذي يفتق الشهوة . و يحرّك المعدة . وزيتون دقوقي[4] مدخّن . مخلوط باللوز المقشّر والصعتر . تنشطر الزيتونة على الرغيف فتملؤه زيتا . و يتدحرج كأنه بنادق عنبر . وجبن رومي مقلوّ . تدمع عينُ آكله من حرافته . حتى كأنه فارق أحبابه . ابيض مُشْرب صُفرة . أملس . حديث . تأكل القالب منه برغيف . لا ينفُخ ولا يُعَطّش . ولا تشمّ له سهوكة[5] . ينقي المعدة . و يلحس البلغم لحسا . و باذنجان محلّل بماء حبّ الرمان . يصرع بحموضته الطير من جوّ السماء . و يقلع من المعدة الصفراء . وتُشمّ رائحته من فرسخ . يُضرّس قبل أن يؤكل . وصدور البط بماء التفاح . وماء حبّ الرمان والتوت الشامي . وارز بلبن حليب . قد تُرك فيه الزعفران . ورُصّع بالحمّص . وذُرّ عليه سكر مدقوق . . . . وقطايف لطايف . مقلوّة مغرّقة في الجلاب . منضودة في حامات البلور المخروط . والصحون الصيني الملوّنة .

(١) ضرب من الشجر (٢) هو الصالبان (٣) صحاف المشهيات (٤) نسبة الى (دقوقا) وهي بلدة بين اربل وبغداد (٥) رائحة كريهة .

و يُرفع الطعام و يأتي بعده فرّاش متهلل الوجه . نظيف الثياب . حسن الشمائل . خفيف الروح . بيده خلال سلطاني مقوّم . كأنه مَدَاري[1] الفضة . من عمل (نجاح الاسود) . فيناول الجماعة منه بتلطّف .

ثم وصف الطست والابريق والمنديل الذي يتمسّح به وصفا عجيبا ثم قال :

هذه أوصاف موائد العراق التي ماأرى والله شيئاً منها عندكم : انما ارى مائدة بلا خلّ ولا بقل . كشيخ بلا فهم ولا عقل . مبسوطة على سفرة رُويْد شتيّة . بساطُ الارض أنظف منها . عليها عوض البوارد[2] باذنجان بسته . شلجم بسته . خيار بسته قثّا بسته . زعرور بسته . أحرق الله بسته . فكم بسته ؟ ! أما الشواء في مائدتكم فهو والله قلوب الحاضرين .

وأرى قدوراً تطبخ بلحم البقر الغلاظ . لابتفسخ لحمها باليدين . يأخذ أحدكم قطعة اللحم بيده . و يجذبها باسنانه . فترشّش على وجهه وخيته وثيابه . ممزوج ذلك اللحم بمرق . يجري عليه الزورق . تغوص يد الانسان فيه الى المرفق . حتى يجد اللحم . مما يأكله الوقادون والزبالون . مختوماً ذلك كله بالعنب الاسود . و بحلاوة مدلوكة باليد . ياتي بعد ذلك قُروي سوادي[3] كهل . في قدّ الجمل . بلحية شمطاء كثّة . وحالة رزية رثّة . بيده أقطاع حطب . يناولهم للتخلّل . ثم يسوقهم الى صحن الدار . و يجمعهم لغسل الايدي . على بالوعة تُحشرم والله الأنوف من روائح القاذورات المجموعة فيها الخ .

ولا أرى في فواكهكم عنباً رازقياً كأنه مخازن البلور . او ظروف النور .

(ورازقي مُخطّف الخصور كأنه مخازن البلّور)
(قد مُلئت مسكا الى الشطور وفي الاعالي ماء ورد جوري)
(لو أنه يبقى على الدهور قرّط آذان الحسان الحور)

ولا رمان مرمر . كأنه صُرّة . قد مُلئت بالجوهر . أو الياقوت الأحمر .

(١) جمع مدرى سنّ من عاج او فضة يخلّص به الشعر وهو غير المشط ذي الاسنان الكثيرة (٢) المشهيات والمقبّلات . (٣) منسوب الى السواد اي بلاد الفلاحين .

ولا مشمئاً كأنه زقاق ذهب . قد حُشيت عَسَلاً . ولا الكمثرى الشامي . والسلطاني . والزرجون والنهاوندي الخ .

انما أرى ساف أمرود . وبهم رود . وثار مرود . وسلم رود . قد أوجعني والله الرود . مما أكل الثمرود الخ .

ثم ذكر مجلس الشراب . فقال : ما أرى والله لكم مجلساً مسجوراً بالند : فروائحه تبلغ الهواء . وتعبر الى دور الجيران . ولا منارة ملوكية . يَزْهَرُ سراجها بخمسة فتايل . بزيت شابي . لا تُشَمّ فيه زعارة ولا مرارة . يصلح للقدور المطجنات . والقلايا المحرقات .

ثم وصف الندامى والخمور . فقال عن نبيذ أصفهان : إنما أرى نبيذاً أسود كالدبس . أو الدِّبْس : (في لون زنجيّ ونكهة أنجر) .

(إذا صُبّ مسودّه في الزجا ج فكأس النديم به مَحْبُورَة)

ثم وصف الساقي فقال :

(يُديرها ساقٍ له رُكبة كأنه مِحْلاج نَدّاف)

(في يده باطيةٌ ضخمة كأنها مِغراة إسكاف)

وربما كان الساقي شيخاً أبيض الرأس واللحية . كأنه بعض المؤذنين أو احد الحجّامين . طَعْمُ الكأس من يده طَعْمُ الزقوم . والهناه ! سقى الله ديارات كَسْكَر[1] ومنازل كسرى وقيصر :

(وسلامٌ على مواخير بُصرى وأواناوالقُفْص والبَرْدان[2])

(ليت شعري مذ غبت عنها على كم قرّ البائعون سعر الدِّنان؟)

قال : ولا أرى في جلسائكم رجلا ظريفاً . مستطاب النوادر . حلواً في القلوب

(١) كورة بين البصرة والكوفة (٢) الثلاثة أسماء دساكر ومواطن لهو في ضواحي بغداد ويشبه تشوّقه هذا تشوّق ذاك الذي قال :

(ليت شعري متى تحبّ بي الدا ساقة بين العذيب فالصيّبون)

(محقباً ذكرةً وخبز رقاق وحباقاً وقطعة من نون)

و (الحباق) جرزة البقل .

وانما أرى طِفِسّاً[1] بارداً . منفيهقاً منقعراً يشقق الكلام : إما في عويص اللغة . او يتبطرم بعلل النحو . ساط الله عليه العلل . ولا أقاله منها . تَحَى في الحاق . وشوك بين الأخمص والنعل .

ثم ذكر المغنّين : فقال لاهل أصفهان : لا أرى والله في غنائكم مطرباً معرباً : يقول الشعر الفصيح . ويكسوه اللحن الصحيح . مثل قوله :

(يانسيم الشمال من نحو بُصرى بأبي أنتَ لانسيمُ الجنوب)

(انت لما اعتللت داويتَ جرحي يانسيم الصبا بعَرْف الحبيب)

(فتمثلتُ من ضنى كان يبكي كل يومٍ عليّ منه طبيبي)

(يا فتاةً شبابها أمتع الله به حسنها عدوٌ مشيبي)

(انما أنت طيبةٌ في كِناسٍ ليس ترعى سوى ثمار القلوب)

(انما انت شمسُ دَجنٍ على طا قة آسٍ مغروسةٍ في كثيب)

(إتقِ الله وارحمي ضرّ صبٍّ ورث الضرّ فيك عن أيوب)

(وعمي البكا فيا يوسف الحُسن أما تشتفين من يعقوب؟)

ثم وصف مغنّيات بغداد ثم قال : هذه أحوال لا أراها باصبهان . انما أرى قردةً كأنها مسنورة[2] عرضيّة . أو غول طَلَع من بَرية . بشعرٍ كالعهن المنفوش . ووجهٍ كليت المنبوش . شعرها فضة . وثغرها ذهب . كأنها طاقة نرجس !!!

فيقال له يا ابا القاسم! أين يُذهب بك ؟ فيقول أخطأتُ أم اصبتُ ؟ فيقال وكيف أصبتَ ؟ فيقول نعم : رأسها أبيض . ووجهها أصفر . وساقها أخضر . أأعجبكم هذا ؟! ما من شيء والله حسن محمود . إلا وفيها منه شبه أو معنى موجود : لها من البدر كِفَته . ومن الورد شوكته . ومن الخمار نهقته . ومن الطاووس زعقته .

(ولا تستطيع الكحل من ضيق عينها وإن عالجته كان فوق المحاجر)

تحت حاجبين ينسج منهما غرائر . ويعقد شعرهما ضفائر .

(١) اي قذراً نجساً (٢) اي مخدة طولها وعرضها سواء .

(ترى شيبها تحت القناع كأنه جدايل ليف في هدية حجاج)

ثم قارن بين غلمان الخدمة هنا وهناك فقال : في غلمان أصفهان : وانما ارى والله دُبّاً في طول المنارة . وعرس الغوارة . قد خرج عن حدّ الاعتدال . وذهب ذات اليمين وذات الشمال . بارد ثقيل . كأنه روثة فيل . عابس كأنه عضّ على بصلة . أو أكل فُجلة . بوجه قطرير . كأنه أسعط بالخردل . جهم كأنما نُضح وجهه بالخل . له وجه كأنما تبرقع بالحنادس . او كُسي قشور الخنافس . اوحش والله من أيام المصائب . وليالي النوائب . وسوء العواقب .

(خلقته حجة اهل الزندقة صارت به اقوالهم محققة) الخ

(ذو صورة شوهاء ان لم تكن قرداً ففي قالبه مفرغة)

(ثلاثة ليس لها رابع هذا الفتى والخُشّ والمدبغة)

انتن والله من هدهد ميت . في جورب عفن . أثقل من همّ الدين . وامرّ من وجع العين . كأنه صورة على باب حمام ؟ . سطل دمشقي عروته منه ؟ الخ .

ثم عاد الى وصف مغنيات بغداد . وذكر طرف من نوادرهن . وحسن اجوبتهن .

فقالوا يا ابا القاسم ! لو تفضلت ببعض تلك النوادر لكنت قد أتممت الانس باحاديثك . فيذكر لهم على سبيل المثال (زادمهر [1]) جارية (ابي علي بن جمهور) وكان ابن جمهور هذا متزوجاً بابنة عمه . فكان منها بين جمرتين : تحرقه هذه بنارها . وتلذعه تلك بأوارها . فأسكن ابنة عمه واسط . وجاريته داره في البصرة . وذهب هو الى بغداد . وبغداد جنة الموسر . وعذاب المعسر . وأقبل على اللهو ومواصلة السرور . ففجرت زادمهر . وكتبت اليه كتاباً من البصرة : وهاكم نموذجاً منها :

اخبرني على من تركتني في دارك المشؤومة بالبصرة ؟ . عوّلت بي على ضياعك الخراب . او على وكلائك السفل . والله ما أشبّه دارك الا بدير هرقل [2] وانا

---

(١) اي بنت الشمس وهي كلمة فارسية . (٢) وهو الذي قال فيه الشاعر ايضاً :

(أولى الامور بضيعة وفساد امر يدبّره ابو عبّاد)

(وكأنه من دير هرقل مُقلت شمس يجرّ سلاسل الاقياد)

محبوسة فيه كبعض الجانين . لا يرجع عليّ شيء الا من أجرة دورك . خمسة وثلاثون درهماً في الشهر . لو شربت بها قُلّة ماء كفتني : يا ابن جمهور! عليك بفلانة وفلانة اللواتي يشبهنك . ويفخرن بك ويقلن : كنّا عند (ابي علي) تاجر السلطان العظيم الجليل . أنت يصلح لك مثل الحمارة البلهاء ابنة عمك : تكسر الجوز على رأسها ولا تجسر تكلمك . فهي تظن انك الوزير ابن الزيّات . اوابراهيم ابن المدبّر . فأما (زادمهر) التي تدقّك دقّ الكشك . وتهينك هوان الكتان . فليست من امثالك . خصّني الله من ذنوبي كما خصّني منك ومن رؤيتك :

(انا في نعمة ببعدك عني أكّد الله نعمتي بالدوام)

وحياة أنفك المعوّج . وكلمك المذأّب . وشوابيرك [1] المحذّفة . لأكافينّك صاعاً بصاع : فلا تمضي شهور حتى يجيء مقموطاً مدهوناً . أضع يدي في زعفران على الكتاب واوجّه بالكتاب اليك . ويحك يا ابن جمهور كأن ملحك على ركبتك [2] . نسيتني واشتغلت عني . ابعث لستّك العزيزة نفقة . واحملها اليك الى بغداد . حتى لا يضيق صدرها . واشترلي بحياتي عوداً بحاشية ساج . منقوشاً بعاج . ويكون ظهره ديباج . حتى اجيء أغني به ... الخ .

ثم جعل يسمي جواري بغداد المشهورات واحدة واحدة . ويذكر شيئاً مما كنّ يغنين به من الشعر . فيطرب لسماعهن شعراء بغداد وادباؤها . مثل (ابن الحجاج) و (ابن نباتة) وغيرهما . ثم يقول : فلو ترون كيف كان يطرب (ابن غيلان البزّاز) على ترجيعات (ريحانة) جارية (ابن اليزيدي) اذا غنّت :

---

(١) مقلوب شوارب وهي لغة عامة بغداد في ذلك الحين . وعامتنا اليوم يتلاعبون بالالفاظ كذلك فيقولون : تحشّر به واصله تحرش به و يقولون : ريقان مكان يرقان . و (رَقعَه كفّ) مكان (قرعه كف) ومعلقة مكان ملعقة وهكذا .

(٢) كناية عن قلة الوفاء فان الركبة لا تمسك الملح ومنه قوله الآخر :

(لا تلها إنها من نسوة ملحها موضوعة فوق الرُّكب)

(أعط الشباب نصيبه مادمت تعذر بالشباب)
(وأنعم بأيام الصبا واخلع عذارك في التصابي)

فيقول له قائل : أيش كان يعمل ابن غيلان اذا سمع هذا الغناء فيقول : تنقلب حمالق عينيه ، ويسقط مغشياً عليه ، وهات الكافور ، وماء الورد ، ومن يقرأ في أذنه آية الكرسي ، والمعوذتين ، ويرقيه بشراهيا مراهيا ، أيش يعمل ؟ هكذا يعمل يابارد ؟

أو لو رأيتم طرب (ابن غسان النصراني) اذا سمع جنابة جارية ابي تمام الزينبي وهي تغني :

(وحياة من أهوى لاني لم أكن أبداً لأحلف كاذباً بحياته)
(لاخافنّ عواذلي في لذتي ولأسعدنّ أخي على لذاته)

فيقولون له : هذا ابن غسّان زيادة ! ! اي رجلٍ كان يا ابا القاسم ؟ فيقول : هذا ابن غسان كان فتىً مليحاً ، ظريفاً ، حسَن الادب ، محذّقاً فيما بين الاطباء ، وهو الذي يقول في ابي مضر العاقل ، وقد عالجه من علةٍ فلم يقض حقه :

(هب الشعراء تعطيهم رقاعاً مزوّرة كلاماً في كلام)
(فلم صفة[1] الطبيب تكون زوراً وقد أهدى الشفاء من السقام)

وكان آخر امر المسكين أنه غرّق نفسه في (كُرداب كلواذا) وذلك لاسباب اجتمعت عليه : من صغَر اليد ، وسوء الحال ، وجرَبٍ أكل بدنه ، وعشق حرّق قلبه ، حتى جرّ الى نفسه حَينها بما اقدم عليه .

ولا يزال ابو القاسم يذكر المغنين ، ويعدّد الادباء الذين كانوا يطربون بغنائهم حتى يختم هذا بقوله :

ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين ، والاغاني من الرجال والصبيان والجواري والحرائر لطال وطُمّ ، وكنت كالمزاحم لمن صنّف (كتاب الغناء والالحان) ، ولعهدي بهذا الحديث سنة ستٍ وثلاثمائة وقد أحصيتُ انا وجماعةٌ في الكرخ اربعمائة وستين جارية في جانبي دجلة ، وعشر حرائر ، وخمسةً وسبعين من الصبيان .

(١) يريد بصفة الطبيب ما نسميه اليوم (وصفة) أو (راشته)

يجمعون من الحذق والظرف ، ما يفوت حدود الوصف ، هذا سوى من كنا لانظفر بهم ، ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب الا اذا نشط في بعض الاوقات[1] .

ثم يطلب ابو القاسم من صاحب الدار ان يهيّء له طعاماً ، وقبل القيام اليه يلعب بالشطرنج مع بعض الحاضرين فيجري بينهما وهما يلعبان كلامٌ لا يمكن أن نفهمه نحن اليوم لانه يتعلق بكيفية لعب الشطرنج في ذلك العهد ، وقد استغرق وصف ذلك نحو ست صفحات من الكتاب .

ثم يقومون الى المائدة فتقدم اليهم ألوان الطعام واحداً واحداً ، وهو يصف كل ذلك ، ويورد ما شاء وشاءت براعته من النكت والنوادر ، وفي خلال ذلك يذكر الطبّاخ ، وما يجب ان يجمعه من الاوصاف فيقول :

والله لقد رأيت ببغداد في دور بني معن طبّاخاً حبشياً اسمه (نارنج) ما اظنّ أني شاهدت مثله : كان والله عنوان النعم ، وترجمانَ المروءة ، وطبيب الشهوة ، أحذق من رؤي من اهل صناعته ، وارهفهم سكيناً ، واعدلهم تقطيعاً ، واذكاهم ناراً ، واطيبهم أبزاراً ، كأنّ الموائد التي يعبّيها ، والثرائد التي يتنوّق فيها ، رياض مزخرفة ، او برود مفوّفة ، كان لايجمع بين لونين ، ولا يوالي بين طعمين ، يخالف بين طعام الغداء والعشاء ، ويباعد بين ألوان الصيف والشتاء ، يكتفي باللحظة ، ويفهم بالاشارة ، كأنه مطّلع على ضمير الضيف والمضيف ، كان والله يطبخ ما يوقظ شهوة النعسان والثكلان والمغموم ، وكان إذا فرغ من إعداد الطعام يقال له (يانارنج الى أي شيءٍ تحتاج ؟) فيقول : الى قوم جياع .

ويجري على المائدة ذكر اثنين من فضلاء بغداد ، فيُسأل عن رأيه فيهما وأيهما

(١) وذكر القاضي ابوعلي المحسن التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ في كتابه (النشوار) كلاماً عن عمران بغداد فقال : أحصي ما يزرع وينفق على أهلها من صنف الحمص فوجد بخمسين الف دينار ، فما ظنك ببلد يؤكل فيه في فصل من فصول السنة صنف واحد من صنوف البقل بخمسين الف دينار ! ! !

الفضل ؟ فيقول : بينهما من البعاد · مابين النجاد والوهاد · ما بين الناهق والصاهل · والناقص والفاضل · ما بين اللؤلؤ والمرجان · واللفت والباذنجان · من يُسوّي بين رجل اعتزر من البحر · ولوضحُ من الفجر · وبين آخر أيبس من القفر · وأوحش من القبر · ذا والله أخفّ من النسيم · وذا أثقل من مِنّة اللئيم · ذا أخشن من الخناجر على المناخر · وذا أحسن من الخاجر في المعاجر · ذا سَعْد السعود · وذا سعد الذابح ذا والله أندى من القطر · وذا أجمد من الصخر · ذا أعزّ من التبر وذا أذل من البعر · ذا عُوْد · شُقّ لمواضع السجود · وذا عودٌ · نُجرّ لخُشُب اليهود ·

ثم يقومون الى مجلس الشراب · فتصف الرياحين · ثم الفواكه · ثم القناني · فيسأله واحد يا ابا القاسم ! وهل تعرف شيئا من السباحة ؟ فيقول ياأحمق !وسوادي لايحسن أن يركب البقر ؟ وتركي لايحسن أن ينزع في القوس ؟ انا والله اسبح من الضفدع · ومن الثنين أعرف من السباحة انواعاً لم يحسنها قط سمكٌ ولا بط : اعرف منها الشق والموزون والمقرفص والدرع والغمر والاستلقاء والشكابي · والطاووسي والغرقبي · وكان أستاذي في جميعها ببغداد (ابن الطوا) و (الزنابيري) ·

ثم يسألونه عن السفن والملاحين · فيعدد لهم انواعها · ويصف لهم ملاحاً سمعه يوماً يخاطب رجاله اثناء الاستعداد للسفر : فذكر من ملابسه وأدوات سفينته واصطلاحات مهنته مالا يتسع الوقت لذكره بل لاتفهمه لو سمعناه ·

ثم سألهسائل عن داره فأجابه: ويحك! أيش تعمل بداري؟ هي في سكة الجوهري · دار أسست على غير التقوى بحمد الله ·

(فان ترد دار الخنا والحوب ومعدن العصيان والذنوب)
(وموطن العاهات والعيوب فاعدل اليها تحظ بالمطلوب)

ثم يأخذ في فنون من الحديث · ويسلك منه مذاهب مختلفة · حتى يسمع حديثاً لبعض الحاضرين فيعجبه ويقول : ذا كلام كبرد الشراب · وبُرد الشباب · قطع الزهر · وعقد السحر · حسن الديباجة · صافي الزجاجة · هو كالبشرى بالولد الكريم · الى سمع الشيخ العقيم ·

ويلتفت الى آخر يتكلم · فيذم كلامه قائلاً : ذا كلام أثقل من الجندل · وامرّ من الحنظل هذيان المحموم · وسوداء المهموم · بمثله يتسلى الاخرس عن كلامه · ويفرح الاصمّ بصممه · كلام المعذّر الامتاع من حزونته · والمحير الاوهام من وعورته ·

ثم يمدح بعض الحاضرين فيقول : شجرة طيبة أصلها في الماء · وفرعها في السماء · احلى والله من الوبل · في زمن المحل · الخلق وَضيء · والخُلق رضي · والفضل مضيء · محاسن انا والله منها في روضة وغدير · بل في جنة وحرير ·

ثم يلتفت الى آخر فيذمه قائلاً : كالكمأة لا اصل لها ثابت · ولا فرع نابت · لو قُذف والله الليل بلؤمه · لطفئت أنوار نجومه · هو في العين قذاة · وبين النعل والاخمص حصاة · النحس يطلُع من جبهته · والخل يقطر من وجنته · ثم يخاطبه قائلاً (رجزاً) :

(يا رفسةَ البغل على الطحال ياصفقةً بالنعل في القذال)
(يا لسعة الزنبور في المآقي ياغُدوة البين على العشاق)
(يا فجعة الحرّة بالطلاق يا نهشة الافعى بلا ترياق)
(ياقبح شيب لاح في نصول يا كلّ شيء وحش مهول)
(يا شوكة في قدم رخصة ليس الى إخراجها من سبيل)
(يا حيرة المكروب في امره ويا صعودَ السعر عند المعيل)
(يا نهضة المحبوب في غفلة يؤذنُ فيها باقتراب الرحيل)
(يا رجعة المحروم من سفرة لم يحظ فيها بنوال المنيل)
(بل يا كتاباً جاء من مخلف للوعد مشحوناً بعذر طويل)
(يا دبلةً في الفؤاد قد نَغلت من أسف قاتل ومن كمد)
(يا ورماً في المعى يدلّ على برد مزاج الطحال والكبد)

(يا فرحة في ناظري غطوا عليها بالدرور)
(فسلخت مع ما يليها في الجفون من البثور)
(يا غمة الكناس من ثم الزرائر[1] والعبير)
(يا سفرة في دجلة والريح تلعب بالجسور)
(يا جلسة في شمس آب على الصخور بلا حصير)
(تحت السما والشمس تو قد نارها حر الهجير)
(يا كل شيء متعب متعقد صعب عسير)
(يا شؤم بخت شقية قد عمرت عمر النسور)
(شق القوابل صدعها عن تسعة مثل البدور)
(حتى إذا شبوا لها وتلاحقوا مثل الصقور)
(وقعت عليهم شيرة[2] بالطول في يوم مطير)
(فرأتهم ولحومهم في الدار تجرف بالمرور)

يا أول ليلة الغريب . اذا بعد الحبيب . يا يوم الاربعاء في آخر صفر . يا ثقل الكابوس في وقت السحر . يا وجه المستخرج[3] في يوم السبت . يا إفطار الصائم على الخبز البحت . يا أثقل من طفيلي يعربد على الندماء . ويقترح انواع الغناء . ويتشهى بعد أكل الغداء . طالبًا الوان الصيف في الشتاء . يا أشد على الاحرار من جفاء الحجاب . وعبوس البواب . وسوء المنقلب والاياب . يا أشد من كربة صاحب المتاع الكاسد . وضجرة المستمع الى المغنى البارد . يا أكره من هجران الصديق . ومن النظر الى زوج الأم على الريق :

(حويت الشؤم حتى الكـ ـف عن صنعك قد تنبو)
(وحتى السحب ان جاور تها لم تمطر السحب)
(وحتى لو صحبت الوحـ ـش لم ينبت له عشب)
(متى سميت إنسانا فان الناس قد سبوا)

(١) الذرائر الطيوب والعطور . (٢) اي صخرة وقد تقدم القول على هذه الكلمة في فاتحة الحاضرة . (٣) هو المحتال اي الجابي وبالتركية (التحصلدار) .

و يذكر ابو القاسم أصدقاءه فيسأله أحد الحاضرين كالمستهزئ : ومن هم أصدقاؤك؟ فيقول — وقد جن جنونه . وتوقدت بالغضب عيونه : «والك! أصدقائي اكثر من خوص البصرة . و بلوط الجبل . وخردل مصر . وعدس الشام . وحصا الجزيرة . وشوك القاطول وحنطة الموصل . ونبق الاهواز . وزيتون فلسطين . والك! أصدقائي « سخطة ابن ابي البغل » و « موسى ابن سلحة » و « جعفر بن الكلبة » و « كرد به بن وردان » و « عاقول الارمني » الخ الخ .

والك! أتعرفني ام لا؟ انا الموج الكدر . انا القفل العسر . انا البائعة الشاطر . انا قلاع القناطر . والله اني اضمك في جيبي وانساك حتى تعفن . أقطع رأسك واجعله زر قميصي . استنشقك فلا اعطسك الا في الجحيم . وابلعك فلا افظك إلا على الصراط المستقيم .

عندها ضحك الحاضرون ضحكًا عاليا . ثم خافوا ان يغضب ابو القاسم و يبادرهم بالسباب . ففضلوا الرحيل . وابتدروا الابواب .

* * *

انتهى ايها السادة ما استحسنت عرضه عليكم من عبارات هذه المقامة . وعنلف اساليبها في الانشاء وحسن التصرف والبراعة في التفنن . وأرى ان هذا التفنن في النقد هو الذي أجاد فيه من المعاصرين العلامة احمد فارس في كناياته لاسيما كتابه (الفارياق) وكذلك ابراهيم بك المويلحي في كناياته لاسيما كتابه (ما هنالك) وهو ابو محمد بك المويلحي صاحب الكتاب الخيالي المشهور الذي سماه (عيسى بن هشام) وربما سبقهم في هذا المضمار الفاضل احمد فوآد المصري صاحب (جريدة الصاعقة) ولا يصح ان نغفل هنا ايضًا ذكر الكاتب المصري المعروف في دمشق (محمود بك زكي) فان هؤلاء في عصرنا الحاضر يشبهون في طريقتهم في النقد — ابا المطير الازدي صاحب هذا الكتاب . وهذه الطريقة وصفوا بها (ابا محمد الاعرابي) المعروف بالاسود الذي تصدر في القرن الخامس للرد على العلماء والاخذ على القدماء قال ياقوت عنه : كان علامة نسابة عارفًا بايام العرب واشعارها لا يقنعه أن يرد على اهل العلم رداً جميلاً انما يجعله من باب السخرية والتهكم وضرب الامثال . فالكاتب على هذه الطريقة يستعمل الكنايات والامثال

والتفنن في الوصف والتشقيق في الكلام مفرغاً كل ذلك في قالب التهكم بخصمه والتهجيل له .

وللمعري في رسالة الغفران اسلوب في النقد التهكمي يشبه اسلوب (حكاية ابي القاسم) . من ذلك قوله بصف كتاب (التاج) الذي وضعه ابن الراوندي معارضاً به القرآن — واما تاجه فلا يصلح ان يكون نعلاً . ثم قال : (وهل تاجه الا كما قالت الكاهنة : أفّ وتفّ وجورب وخفّ . قيل وماجورب وخفّ ؟ قالت : واديان في جهنم اه . ويعني المعري ان ماذكره ابن الراوندي في كتابه التاج مختلق وصرف للحقائق عن وجهها كما فعلت الكاهنة مذ زعمت ان (الجورب والخفّ) هما واديان في جهنم . وزعمها كذب صراح .

(المغربي)